معركة أدبية حامية...

دمشق - من مراسل «الآداب»

بعيدا عن البحث في الصدق الفني، والروح الانسانية المواكبة للتاريخ، الدافعة والمندفعة معه، نشبت معركة أدبية حول الاتفاق سياسيا، من الناحية الايديولوجية، والافتراق جماليا، من الناحية الايديولوجية ايضا، وحول الادب والخطاب السياسي، والسياسة والبيان الادبي، ومدى الافتراق والالتقاء والواقعية الاشتراكية، والايصال والتسليع، والادب ومساحة الصراع الاجتماعي، ولغة الشعر والرواية، والشعر والنثر، والبطل الايجابي، والكفاح والفرح الانسانيين.. ومواضيع اخرى، مطروحة في الساحة الادبية، بدأت في لبنان وانتقلت، بعد الغزو الاسرائيلي، الى سورية، وشاركت فيها اقلام عديدة، في حوارات ساخنة، بلغت حدا اقترب بها الى الاتهامات، والاتهامات المتبادلة، واستجرت من مداخلات. فيها ملامسة للطروحات حينا، وللقضايا الشخصية احيانا، وفيها كثير من العصبية والتشنج، كاد يخرجها عن اصولية النقد الأدبي، حين اقحم بعض المتحاورين، مفاهيم سياسية، جاءت اسقاطا على الموضوع، ولا علاقة لها بالادب الا بمقدار ما يتمترس اصحابها وراءه للاطلاق على المؤسسات سياسية معينة، وعلى نقاد ينتمون الى هذه المؤسسات، مثل حسين مروة، محمد دكروب، عبد الرزاق عيد، وعلى ادباء يرفعون راية الواقعية الاشتراكية مثل الروائي حنا مينه.

والطريف في الامران جميع المتحاورين، حتى هاني الراهب وغالب هلسا، رغبوا في ان يقولوا إنهم ينطلقون من مواقع ماركسية، ومن جماليات الماركسية حول الادب والفن، اي انهم يتفقون مع الآخرين ويختلفون، كما كتب الدكتور فيصل دراج، ولكن الحوار اظهر ان ثمة اختلافا فقط، ولا اتفاق في اي نقطة مع الآخرين، وان المعركة التي بدأت في بيروت، حول الواقعية الاشتراكية، انتقلت الى دمشق، وقد اصر دراج على موقفه منها، وهو موقف كان قد اصطدم بشأنه مع حسين مروة، وسمير سعد، واميل حبيبي، ولم يلبث ان اصطدم بشأنه مع عبد الرزاق عيد، ثم تشعب الموضوع، وخرج من اطار مجلة «الحرية» الى مجلة «الهدف» والى الصحف العربية اليومية بدمشق.

لنبدأ من الشرارة الاولى، ونستعرض، بموضوعية، طروحات هذه المعركة الادبية التي ما تزال قائمة، خاصة بين فيصل دراج وغالب هلسا من جهة، وعبد الرزاق عيد وعبد الكريم كاصد من جهة ثانية، مع تعليق من عدة سطور لهاني الراهب، حول البطل الايجابي، هدف منها الى مهاجمة هذه المقولة، بكلام لم يدخل في صلب المناقشة، لانه لم يبلغ مستواها كما قال عبد الرزاق عيد.

فقد أجرى فيصل دراج مقابلة مع حنامينه، نشرتها مجلة «الحرية» تحت عنوان مثير «حوار ساخن» وابرزت، بخط كبير، مقولة حنامينه: «انا كاتب الكفاح والفرح الانسانيين» وصدرت الحوار بمقدمة قال فيها فيصل: «حوار مختزل نقترب فيه من عالم حنامينه، هذا العالم العظيم في بساطته، المعقد في سهولته، الرحيب في أسئلته التي يطرحها علينا ونطرحها عليه».

وبعد هذا يشير، تلميحا، الى ان حنا يربط الحلم بالتاريخ، ويشد الخيز الى دائرة لا تغيب عنه، هي دائرة السياسة، وينطلق من موقف ايديولوجي محدد، او يتكىء على ايديولوجيا محددة.

وقد كانت هذه المقدمة، التي تمهد للحوار، ترسم إطاراً مسبقا لأدب حنامينه، ومع ولوج المديح في ضده، تنذر المقدمة بأنه سيكون هناك ردّ لأن الحوار الساخن، كما قال المحاور، يتصف بالصدامية.

يبدأ فيصل حواره بالسؤال عن وظائف الادب، ويرد حنا بان للادب وظيفة اجتماعية، فما دام هذا الادب ينبع من واقع، فانه يصير، في المعالجة، واقعا فنيا جديدا. وان ما

يستمد من الواقع، ويأخذ اضافته من الجهد الانساني، في اشكال مختلفة للابداع، يعود الى الواقع من جديد، الى الناس حاملا هذه الإضافة الفنية، لتصير، بدورها، اضافة جديدة لواقع جديد وهكذا، الى ما لا نهاية، ما دامت السيرورة التاريخية، في الحركة المتبادلة بين الفن، والواقع، هي فعل حركة لا سكون، وفي هذه الحركة يكمن الجديد دائما، فينعكس في الادب، في الفن عموما، ويرتد الى الواقع ليسهم في تغييره، ليجعله واقعا جديدا ومتجددا ابداً.

وبتلخيص، يمكن التعرف الى أجوبة حنامنيه من خلال العناوين، فهو يرى حرية الابداع شرطاً لازدهاره والشاعرية والغنائية في طبيعة الرواية التي تريد أن تخرج من الجفاف، والشكل ليس معياراً للرؤية الايديولوجية منفصلا عن المضمون «وصوتي هو صوتي انـا، ولن اضـع «مساطر» الروايـات الاخرى، ولا مفاهيم الآخرين، مقاسات أفصّل رواياتي على حجمها، عندئذ لا أكون ذاتي، ومهما يكن الرأي في الطريقة التي اتبعها، وانا واع لها، والقارىء يريدها، وهي أداة توصيلي اليه، فان هذه الطريقة ستكون سيئة جدا، اذا حاولت قسرها على ما يرضي النقاد، ويتوافق مع المعايير الفنية لجويس اوفولكنر اوغارسيا او غيرهم.. انني اجتهد في عملي، وحين افرغ منه، اقول: «هذا ما استطعته والسلام».

يتابع حنا: ان العالم الروائي واحد، ولا ارى سببا للتصنيف، وان الكتاب في اي مجتمع، هو سلعة، وان تسويق هذه السلعة يختلف من نظام لآخر، وقد شاخ مثقفونا قبل الأوان، وعلينـا أن نفخر بصمود الإنسان العربي وبطولتـه ونشجعه عليها، ولست أرى الانسان العربي مهزوماً ولا متخاذلا، واذا كان من تخاذل فهو القيادات.

ويجيب حنا فيه على سؤال اخير: «أنا كاتب الكفاح والفرح الانسانيين، وانا فخور بذلك، وان البطل الايجابي هو في ايجابية الرواية، ولكن المكافحين، والايجابيين، هؤلاء، ليسوا ابطـالا جـاهزين ولا خـارج شرطهم الانساني او الظرفي».

ويرد فيصل دراج، في دراسة يقول انها تقارب الاتفاق والاختلاف، لكنه يضع عنوانا لها «هموم الادب، هموم السياسة» ويبدأ، منذ السطور الاولى، في وضع حنا في الزاوية السياسة، او الصدور عن مؤسسة سياسية، ويرى دراج ان «تسليع الادب هو تنزيله عن مقامه، واغترابه عما يجب أن يكون عليـه» وفي مسألـة التوصيـل يقول: «مما لا شك فيه ان القارىء يقترب من الكتاب حينما يلمس الأخير قضايا الاول، ولكن هل تنحصر وظيفة الادب في التحريض والتنوير؟» ويتحدث بعد ذلك عن «العارض» و «التاريخي» فيقول «ان وعي الواقع الاجتماعي في الكتابة الادبية لا يستوي الا بمعرفة شكل الوعي القائم فيه، وهذه المعرفة بعيدة عن «المعايير اليومية» لان علاقة الادب تتجلى في زمانه الراهن بالأزمنة المختلفة، وهناك تمايز بين الزمن الاجتماعي والزمن الأدبي» وينتهي الى مسألة الانعكاس فيتهم الادباء الذين ينتمون الى ايديولوجية تستند الى «مؤسسة سياسية» بالفهم المسطح لهذا الانعكاس، ويرفض لغة الرواية الشاعرية، ويهاجم البطل الايجابي ويتناول مسألة الشعر والنثر، ويفهم من موضوعة الفرح الكفاحي بأنها رؤية الدنيا بخير، وان البطل الايجابي هو البطـل الكـامـل، ويستشهـد في مقولاتـه هـذه بغرامشكي وباختيف وغيرهما، ويركز نقده على موضوعة الواقعية الاشتراكية.

يرد عبد الرزاق عيد، على فيصل دراج حول «الطريق الثالث وازمة البورجوازية الصغيرة، ويفند رؤيته السياسية قائلا: «وسط اضطرابات هذا الكوكب الصغير، يجب ان لا يتسرب اي شك الى نفوسنا في اننا نحن الوارثين، ومأزق الرجعية العربية، وازمة إحدى فصائل حركة التحرر ليس مأزقنا، وليست أزمتنا، بل في ازمتها انفتاح أفق صيرورة طليعتنا الثورية».

وحول تسويق الكتاب، وربطه بالمجتمع الرأسمالي والمجتمع الاشتراكي وعدم تحقق هذا التسويق الا في فترة محددة من التطور التاريخي يقول عبد الرزاق: «هل حقا تسويق الكتاب العربي هو تسويق للتسلية المضللة؟ اليس ذلك حكما اطلاقيا جائرا؟ اليس بين الكتب المسوقة، ما ينشر المعرفة والوعي، ويلتزم بقضايا الأمة؟» وحول مسألة التوصيل وملامسة الكاتب قضايا القارىء الاجتماعية والنفسية، يناقش عبد الرزاق آراء دراج وينتهي الى القول: «ان فيصل دراج يشن هجوما خجولا على تجربة حنا مينه مانحا لغته صفة تجريدية عامة» «ان الرواية لا يمكن ان تكون مجرد حكايتها، كما ان العالم لا يمكن ان يكون مجرد قصة نشوئه. ان الرواية، كبنـاء، تشاكـل بنـاء العـالم في الحكـايـة، وبأحـد العنـاصر المساهمة في البناء، على اعتبار أنه يستحيل وجود القص دون الحدث، لكن الحكاية بذاتها ليست دالا ومدلولا..» «ان مسألة الدلالة تنصبّ حكما في عملية الايصال، في العلاقة ذاتها بين المرسل والمتلقي.. وقد يكون عقم وسائل القراءة هو عقم وسائل الناقد وليس عقم المنقود ذاته.. ان فيصل، حتى في رواية مثل «الشراع والعاصفة» يختزل المنظور الى مستوى الرؤيـة السياسية وهكذا تدأب الاتجاهات الشكلانية على عدم

التمييز بين الموضوع والمضمون عن قصد أو غير قصد، وهدفها من ذلك تشويه المفهوم الماركسي عن جدل العلاقة بين المضمون والشكل، لأنها باختزالها للمضمون تضع هدفاً سهل التناول والقدح».. «ان حنامينه يرفض ان يكون الشكل معيارا للرؤية الايديولوجية منفصلا عن المضمون، وباطروحته هذه يميز، وبشكل واضح، بين موضوع العمل ومضمونه».

ويضيف عبد الرزاق عيد: «سأتوقف عند مسألة البطل الايجابي، وقد زاد من تحفيزي على تناول هذه النقطة الحوار مع هاني الراهب. حيث يتفق هاني مع فيصل في رفضها لموضوعة البطل الايجابي.. ولست في صدد رفض او قبول هذا المصطلح، لكن ما يحدوني على تناوله هو سوء الفهم والالتباس الذي يحكم لغة دراج - الراهب... يقول فيصل: «ان البطل الكامل او البطل الايجابي لا وجود له الا في عالم بلا تناقض» اننا لو تفحصنا هذه الاطروحة لوجدنا انها، ومنذ الجملة الاولى، تقوم على موقف مسبق يسعى في سبيل اثبات وجهة نظره الى لوي عنق الحقيقة، لتستجيب الى لغة تعتمد على علاقات منطقية شكلية، تعكس عقلا وضعيا ظاهراتيا، عبر نفي دور الذات الابداعية للكاتب «لأن التحريض في الكتابة لا يؤدي الى الفعل الحقيقي الا اذا رسم الواقع كما هو بدون زيادات تبشيرية او اماني ذاتية» كما يقول فيصل، وهذا يضعنا باتجاه عودة الى الواقعية الطبيعية الميكانيكية، التي تطالب الكاتب بالحياد تجاه الواقع، وإلى مفهوم عقيم للانعكاس، يرى عكس الواقع كما هو دون أمانٍ ذاتية... لنعد الى الجملة الاولى التعريفية «ان البطل الايجابي هو البطل الكامل» هنا يعطي فيصل الإيجابية معنى الكمال، او يجعل مدلولي الكلمتين واحداً.. ان الايجاب، كمصطلح، يستدعي بالضرورة السلب وليس الكمال، ومكسيم غوركي اقل سذاجة بكثير مما يصوره فيصل وكثيرون غيره.. اما آراء هاني الراهب، فانها مدعاة للاستغراب بحق، حيث ان هاني ليس روائياً فحسب، بل هو اكاديمي ايضا، غير ان حديثه عن موضوعة البطل الايجابي ليست من لغة الروائي او الاكاديمي في شيء، انها اللفظ الهجائي السياسي الذي يفتقر الى ابسط القواعد في نظرية الرواية وتاريخها، فهو يختزل البعد التاريخي لهذا المصطلح الى حدود الموقف السياسي المتفائل او المتشائم من هذا الحدث السياسي او ذاك. ويخلص عبد الرزاق الى الكلام على الواقعية الاشتراكية، في تحليل مسهب، ناقضا مقولات فيصل حولها.

بعد ذلك تدخل غالب هلسا، فاتهم عبد الرزاق عيد بالقمعية، وكال شتائم سياسية له، وتوقف عند مقولة حنامينه عن الادب غير المخصي، فرأى فيها دعوة الى الجنس، وبنى استنتاجات كثيرة، حول النقاط المثارة، دون ان يستطيع تحليل ايه نقطة كما فعل فيصل وعبد الرزاق، متجاهلا ان الاخصاء هو ابطال الفعالية، وهذا يشمل الكفاح والخصب والعطاء كما يشمل الجنس ايضا.

ومن جديد عاد فيصل دراج الى الموضوع، في ندوة ادبية، مهاجما الواقعية الاشتراكية، ومشاركاً هلسا في ان الذين ردوا عليه كان ردهم قمعيا، وأتبع ذلك بحوار مع محرر جريدة «تشرين» قال فيه ان النقد دون قيد او شرط تكريس لعطالة الفكر، وكل نزعة نحو التقديس هي نزعة الى نفي المعرفة، وقال ان النقد هو حوار حول المفاهيم النظرية، وعلى النقد ألا يمزج بين المفاهيم النظرية والاشخاص، لان النقد، في هذه الحال، هو نقاش للاشخاص في مواقعهم السياسية، او يصبح هو الدفاع عن المؤسسات السياسية.. وتعرض لروايات حنامينه باعتباره من ممثلي الواقعية الاشتراكية، فهاجم بعضها بلطف، من منطلق موقفه الرافض لمفهوم الواقعية، وجدد اطروحاته حول لغة الرواية، والشعر والنثر.

وتدخل في المناقشة عبد الكريم كاصد، في مجلة «الهدف» مؤكداً جملة مسائل أهمها فهم فيصل دراج المشوه للواقعية، واتجاهه الطبيعي في الرواية، من خلال دعوته الى تصوير الواقع كما هو، ونزعته التاريخية الضيقة، التي تلغي دور الانسان. «لا يمكن ان ينتصر الانسان ما دام التاريخ اقوى منه» مصورا التاريخ وكأنه سلطة خارج الانسان وليس كنشاط للانسان الذي يتابع اهدافه على حد تعبير ماركس وانجلس في كتاب «العائلة المقدسة»، وانكاره لأية قيمة حياتية من خلال رفضه لكل ما هو ايجابي او سلبي في الحياة. وقال عبد الكريم: «ان نقدا هذا مضمونه لا بد ان يؤدي الى نثر الحياة الجاف على صعيد الشكل، والى الغاء كل ما هو شعري في الحياة. وبالتالي الى الشكلية. فهو على طريقة في حسم المسائل يضع فيصل حدا فاصلا بين الشعر والنثر، حدا لا يمكن تجاوزه ابدا، منطلقا بذلك من مطالبته الملحة بانتاج المعرفة التي لا ندري كيف تتوافق مع مطالبته الروائي ان يتخذ دور المراقب السلبي من الواقع، ومع فهمه للتاريخ كالغاء لدور الانسان وبالتالي للروائي نفسه، ومع نفي كل قيمة حياتية، ولكن هذا التناقض سرعان ما ينحل حين نفهم: «ان الشكلية والطبيعية تتداخلان تداخلا شديدا، فالشكلية تقتبس من الطبيعية مؤثراتها، والطبيعية تقتبس من الشكلية فلسفتها، ويمحي الفرق بينهما في بعض الاحيان».

ويتناول عبد الكريم مقولة فيصل حول الشعر والنثر: «ان لغة الشعر تاريخيا هي اللغة الاولى او لغة البراءة، التي لا تعرف المفاهيم وتعجز عن شرح الظواهر» «وانها تقوم على حركة الذهن الشارد وتجهل معنى المعرفة». ويعلق عبد الكريم: «ليس هناك رأي يدل على تهافته مثل هذا الرأي الذي يعتبر أن كل من ليس لديه شيء يقوله يستطيع أن يكتب الشعر، والذي يستتبع أن الشعراء، حتى العظام منهم، لم يكن لديهم ما يقولونه.. ان الوقوف عند هذه الآراء التي ثبت بطلانها منذ زمن بعيد ومناقشتها ليس الا ضربا من الوقوف على الأطلال، والأعجب من ذلك ان الناقد فيصل دراج يثبتها كحقائق هامة، مستنتجا منها او مؤكداً فيها ان الشعر يعيش زمانا غير محدود.. لقد قيم ماركس وانجلس الشعر تقييما عاليا كحامل للمعرفة، ولا اعتقد ان هناك ضرورة للاستشهاد بما كتباه بصدد هوميروس واسخيلوس وارستوفان ولوكراسيوس ودانتي وغوته وشكسبير وملتون الذين نعت انجلس بعضهم بالشعراء الملتزمين».

وتحت عنوان «هل هو افتراق جمالي واتفاق ايديولوجي، ام هو افتراق ايديولوجي جمالي؟» عاد عبد الرزاق عيد الى مداخلة جديدة، قائلا: «ان غالب هلسا نقل الحوار من مستوى مناظرة الاختلاف المعرفي الى مستوى مناظرة الاتهام الشخصي». ثم يتحدث عبد الرزاق عن موضوع الانعكاس، وفهم فيصل وهلسا الخاطىء له فيقول: «ان نظرية الانعكاس تدخل في إطار النشاط المعرفي للإنسان. وهي ليست مسألة ذوقية، بل هي علم تفسير آلية هذا النشاط، وهي ليست مصطلحاً نلجأ إلى التعاريف أو القواميس لإكتشافه... إنها علم يكتسب صفة القانون، ونظرية الانعكاس هي بمثابة القانون العام الذي يفسر علاقات البنى العامة، التحتية والفوقية... انها المبدأ العام الذي يحكم علاقة الجمالي بالإجتماعي، فهذه النظرية التي صاغها لينين وليس ستالين، هي الاساس الفلسفي لحل المسائل الطبيعية والإجتماعية، وليست مجالا لثرثرة غير المسؤولة معرفياً». «وان العودة لمناقشة هذه الاطروحات هي كالعودة لمناقشة هل الأرض كروية».

«اما ما يتعلق بمسألة فهم حنامينه الجمالي الذي يعود الى الخمسينات على حد تعبير هلسا، فلقد اوضحنا ان هذه النظرية تعود في تاريخها الى النصوص الكلاسيكية الماركسية، في حين انها تبلورت كصياغة نظرية في سنة ١٩٠٨ في كتابات لينين الفلسفية، وليس في الخمسينات على يد ستالين. لكن السيد هلسا يلجأ للارهاب السياسي ملوحا بالاتهام بالستالينية في وجه حقائق الفكر والتاريخ، وهو يدري او لا يدري بان هذا السيف الصدىء الذي تحول الى سلاح عقائدي للمجتمعات الامبريالية اصبح مغلولا ومدعاة للازدراء».

وبعد ان يناقش عبد الرزاق مقولات هلسا وفيصل، وتشكيكهما في قدرة الانسان على الفعل في التاريخ، يتناول عدد «الآداب» والاستفتاء الذي اجرته عن الهزيمة والثقافة ويقول ان حنامينه ومحمود امين العالم هما الوحيدان اللذان رفعا الصوت ضد اليأس والماسوشية، وان زماننا هذا يشهد على ان الايجابية في الاجناس الادبية، لا تعني الكمالية، لان الايجابي يحمل السلبي في ذاته، ولكن النصر، في النهاية، هو لكل ما يكون مع الايجاب، ومع مسيرة التاريخ، وفهمها، وفهم دور الانسان فيها.»

ولا تزال المعركة الادبية دائرة..